من سير أعلام الشهداء

٣٦

أبو عزّام

بسم الله الرحمن الرحيم

[أبــو عزام]

هو أمير الأمراء، وسيّد الشّهداء، صاحب الخُلُق الرفيع، والأدب البديع، من جواهر العراق النبيلــة، ومعادن الأنبار الأصيلة، من يملأ العين مهابة، والقلب محبة، هو للتوحيد علَــم، وللجهـــاد رايـــة، وللأعداء نكاية، طارت بذكره الرُّكْبان، وانقاد له الشجعان، هو الإداري المحنك والخطيب المفوَّه، فمن هو ذاك الأسدٍ.

هو الشيخ عبد الله، من أبناء مدينة الفلوجة الأشاوس، وصاحب الكلمة المسموعة، كـــان إمامـــاً وخطيباً لجامع " المهاجرين "، وسبحان من جعل للأسماء من مدلولاتها حظًّا ونصيباً، فإن الله الذي خلق الخلائق قدّر الأسماء على مسمياتها، وقد ألّف علماء البيان —كابن فارس - في دلالة المبنى على المعنى حتى غدا أخيراً علماً مستقلاً تحت اسم "علم الدَّلالة"؛ فالطاغوت مثلاً ترى في مبناه حروف التفخيم والاستعلاء ظاهرة، كما أن " الزهرة " فيها حروف الترقيق واضحة، ووالله إنّ ذلـــك في لغة الضّاد أوضح من الشمس في كبد السّماء.

لكن -وسبحان الله - فباستقراء أحوال كثير من الأسماء وجدتُ أن الإنسان له حظٌّ كبير من اسمه، مما يظهر بجلاء أن ذلك مُقَدّر ولو كنا نجهل ذلك،

كما قيل:

وقلما أبْصَرَتْ عيناك من رجل   إلا ومعناه إن فتَّشْتَ في لقبه

ولذا كان جامع " المهاجرين " له من ذلك الحظ الأوفر والنصيب الأكبر، وكان إمامه الشـــيخ " أبو عزام " من أولئك النفر القليل الذين كفّروا البعث ونقموا عليه وأعدّوا له العُدّة؛ فقد انتظم مع مجموعة من طلبة العلم سرّاً وتعاهدوا على نشر عقيدة التوحيد ومحاربة البدع والخرافات والشـــرك والضلالات، فالدروس والمحاضرات والكتيبات والمطويات والأدب الرفيـــع والنصـــيحة الرقيقـــة والبسمة الحنونة كانت من وسائل أبي عزام في الدعوة إلى الله.

كما أن الرَّجُل لم يُهْمل نفسه فاجتهد عليها غاية الاجتهاد؛ فحفظ كتاب الله وصار صاحب باع في الحديث، حيث درس الكتب الستة ودرّس إخوانه الصحيحين: البخاري ومسلم، وأخذ ما يغنيه من فنون اللغة وآدابها.

ثم جاء المحتل إلى أرض الرافدين يختال الهُوَيْنى، بين طيّاته غزو الروم، يحمل مزمارهم أبنـــاء فـــارس وحقد المجوس.

وحانت لحظة الصدق والوفاء، فوقف أبو عزام مع نفسه قائلاً: " هذا الجهاد الذي كنت تَتَمَنَّيْنَه قد جاء إليكِ في دارك، والعدوّ عَبَرَ المحيطات ليقف أمامك، فهل أنتِ مجيبة داعي الله: (انفروا خفافـــاً وثقالاً)، أم أحملكِ على هذا مجبرة مكرهة؟ فأجابته هينة لينة قائلة: وهل أعصي مثلك وأنا العارفـــة بحزمك وعزمك؛ فامضِ بي حيثُ شئتَ".

وكلّ ذلك والعبد الفقير يُعِدُّ العُدة ويتلفت وراءه وأمامه ليرى إخوة الدعوة والبيان، فإذا بجهلـــهم في أحضان الذلة والخذلان، فحاول واجتهد، فأجابه من لم يكن قد طمر الطين بعد أذنيه وطمـــس عينيه، وراح الجميع ينفضون عن أنفسهم ركام الغفلة وينظفون أوساخ المعاصي، وتعاهدوا علـــى أن يكون بارود المدافع طِيْبَهم وزَخَّات الكلاش بيانهم، وأصوات المدافع صهيلهم، وعلى الجملـــة الجهاد في سبيل الله سياحتَهم.

فجمعوا السلاح وخزّنوا المتفجرات وكدّسوا العبوات، وأخذ جمع السلاح بأصنافه منهم الكثير، ثم وقف أبو عزام يوماً مع نفسه قائلاً: إلى متى جمع السلاح وهل هناك نهاية لهذا الأمـــر، ألا يمكـــن الجمع بين هذا ونــــزال العدوّ فقد بدأ طغيانه يفوح مع بوادر تشمير المجاهدين، والتفت فلم يجـــد حوله من يقود الجهاد ويسير به إلى بر الأمان ففنون الحرب ليسوا أهلاً لها، كما وأن حزب البعث أبعد الناس عنهم مسلكاً.

و في تلك الفترة التأملية والرحلة البحثية نــــزل عليهم أسد الرافدين ضيفاً وداعيـــة إلى الجهـــاد في سبيل الله، بعد أن مهّد له إخوة أفاضل كرامٌ أشاوس وعلى رأسهم الداعية الموفق والمجاهد المســـدد الأخ " أبو يوسف " فك الله أسره من سجون طواغيت الأردن، حيث أســـلما إلـــيهم أســـيادهم الأمريكان ليجد حكماً بالإعدام أمامه.

فجلس الجميع يوماً مجالسَ صدق وأرادوا أن يضعوا الحروف على النقاط والطلقات في السلاح.

جلس أبو عزام وإخوانه وعلى رأس مجموعته أحد شيوخه وجلس الشيخ أبو مصعب وأبناؤه، وقال لهم: اليوم نريد العمل، وقد مضى عهد الكلام، وما جئنا هنا إلا للنـــزال ولكم عليّ أن أســـتعين الله في جلب رجال الحرب وأبطالها وأبناء الشهادة وعشاقها، فكونوا لي ظهراً أكن لكم يداً، ومـــا

نحن إلا جنود جئنا لخدمة الدين وإقامة شِرْعَة رب العالمين، فكان رد الحاضرين -أو جُلُّهم- أنت الأمير ونحن لك جند فامضِ بنا على بركة الله، لكن أسد الرافدين امتنع من ذلك وأبى أشد الإباء، فما زال القوم به حتى حملوه على ما أرادوا حملاً وأكرهوه عليها كرهاً فاسترجع وحوقل وقَبِلَ البلاء على مضض.

ثم أطلق فيهم زئيره، وأوقد فيهم الحماسة في نفوسهم واستنهض الهمم الأبية بين طياتهم فأجابوه جميعاً إلا شيخ الشيخ أبي عزام أكله الحسد وتمنى أن يكون الملأ اجتمعوا عليه على الرغم أنه رفض ذلك أول الأمر متظاهراً بالنسك ومتورعاً عن قيادة الركب، فلما سار بالركب غيره أنفت نفسه وانحرف ليسير في اتجاه آخر.

واستمسك أبو عزام بما اجتمع عليه القوم وسار مع أسد الرافدين أخاً وناصحاً وصديقاً وفياً وجندياً مخلصاً فما وَهَن وما بدّل إلى أن لحق بربّه واستراح من دنيا العبيد.

و إليك أخي ما أعرفه أنا وما كنت عليه شاهداً في رحلة الأسد الطويلة في غابة الأمريكان.

نسيت أن أقول: إن عدة من اتفق مع شيخ المجاهدين وأسد الرافدين على الجهاد في سبيل الله كانوا اثني عشر رجلاً ليس منهم اليوم في بلاد الرافدين فيما أعلم إلا اثنان.

و سبحان الله، كان عدد من بايع النبي صلى الله عليه وسلم في العقبة الثانية من الرجال اثني عشر رجلاً وكان نقباء بني إسرائيل اثني عشر نقيباً، وسبحان من عَقَدَ الأمور على هذا النحو العجيب من التوافق، وهذا وربّي مَظِنَّة التوفيق.

لن أتكلم عن حياة أبي عزام الجهادية وعن دوره في تلك العمليات الصغيرة والكبيرة بدءاً من اغتيال "باقر الحكيم" ومروراً بالأمم المتحدة وغيرها، ولكنّ أبا عزام في أرض الرافدين علَم وأسد، فلم يتوقف صهيله و لم نجهل زئيره في أي موضع من المواضع وخاصة في ملاحم الإسلام ببلاد الرافدين، بل لم يكن فيها قط إلا رأساً ولا لها إلا قائداً وشيخاً.

وأول تلك الملاحم الكبرى والعمليات العظمى، معركة الفلوجة الأولى، أعني بها أول مرة نزل جنود محمد صلى الله عليه وسلم إلى الفلوجة وسيطروا عليها سيطرة تامة وأسقطوا مديرية الأمن و"القائم مقامية" وانسحبوا تاركين وراءهم العدو في دمائه وحيرته بعدها اجتمعوا صفاً ليدرسوا آثار هذه الغزوة المباركة والتي كان قائدها وبطلها الأسد المحنك الأخ "أبو فارس الأنصاري".

كان الشيخ أبو عزام هو المشرف الرئيس على تلك العملية المباركة، وأول ما أراد الفتى أن يتعود الإخوة النزال ويكسروا هيبة الأعداء وتنغمس أيديهم في الدماء أعني دماء العدو فتطيب قلوبهم وتقوى نفوسهم ويستهينوا بعدوّهم ويغرسوا في قلبه شوكة وبين ضلوعه رمحاً لا يزول إلا بروحه وقد كان؛ فقد كانت هذه الغزوة كما أسلفنا لها ما بعدها من الأثر في المعارك التالية، ثم جاءت معركة الفلوجة الأولى -وقد سبق أن نوهنا بعض الشيء على ملابسات قيامها وبعض معاركها وقد ألف الشيخ الفاضل أبو أنس الشامي فيها كتاباً أسماه "معركة الأحزاب" بيّنَ فيه بعض أيام الفلوجة وشيئاً من سيرة رجالها وكان أبو عزام أحد هؤلاء الرجال، بل كان سيّد الرجال وشيخهم حيث كان أمير الحرب في تلك المعركة - وكان أبو عزام الأمير العام للفلوجة، وقد حمل الرجل العبء الثقيل واستعان بالله ومضى.

مضى يشد العزم ويسد الثغر، ويرفع الهمة ويقوي الشوكة، ويهدد العدو ويُمَنِّي الصديق، ويتنقل بين الجبهات مُرَبِّتاً على أكتاف الرجال يبث فيهم روح الإباء والفداء ويذكرهم بالصدر الأول والجيل الأوحد أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قائلاً: "والله لست أشك أنكم تقفون اليوم موقف الأنبياء والمرسلين وتسيرون على خطا الصحابة والصادقين، وهذا إمامكم عبد الله بن رواحة يقول يوم مؤتة: والله إن الذي ترهبون للذي تطلبون، فسيروا على الدرب وشدوا العزم والهمة وإنما النصر صبر ساعة، والله يا قوم إن الله علينا مطلع ولدينه حافظ ولعباده ناصر ولعدوه قاهر فاتقوا الله وسيروا على بركة الله".

وجاءت مسألة المفاوضات وكَرِهها الأسد كرهاً شديداً ورفضها رفضاً مبرماً وبعد أيام اتصل بالإخوة خارج الفلوجة، فإذا هم يخبرونه أن ما يسمى بـ"الحزب الإسلامي" أخبرهم أن الإخوة في الفلوجة قبلوا المفاوضات وأن الشباب اقتنع برأيهم وألقى السلاح وبدأت أرتال العدوّ يدبّ فيها النشاط بعدما طاردها المجاهدون في الطرقات حتى أشرفوا على الاستسلام، وبدأ حراس سجن "أبي غريب" يُعِدُّون العدة للهروب بالاتفاق مع السجناء على ألا يقتلوهم ويؤمّنوهم، فجاءت بادرة الحزب الاستسلامي خيرَ منقذ فسدّت فوهات مدافع البسطاء من المجاهدين وخذلت وأَرْجَفَت نفوس ضعفاء الناس والمساكين الذين ظنوا أن ذلك في مصلحة المجاهدين.

وما دَرَوا أن العدو بدأ بنشاط من جديد وأخذ يصب جام غضبه علينا في الفلوجـــة، فاســترجع الجميع وبدأنا من جديد نملأ المخازن والتي لم يبق لملئها إلا القليل حتى جاء نصر الله ومنّه.

و قد كان الشيخ أبو عزام يراسل أسد الرافدين وشيخه أبا مصعب بتقريرٍ مفصل يومياً عن أحوال الجبهات والمعارك والسلاح والإخوة، قتلاهم وجرحاهم وما لابد منه، ويتلقى التعليمات والنصائح كذلك يومياً عن طريق أخٍ كريم بذل في ذلك مهجته.

و من النكات التي تحضرني في هذا الأمر أن الأخ الذي كان يحمل الرسائل جاء ليأخذها مـــن أبي عزام وكان أبو عزام لم ينته بعدُ من كتابة تقريره اليومي وبدأت ملامح الظلام تدخل ولا بـــد أن يغادر الرجل وهناك بصيص ضوء. وأخذ الشيخ أبو أنس يحث أبا عزام على سرعة الانتهاء فلما لم يجد لذلك أملاً، قال له: "مشكلتك يا أبا عزام أن عندك سمعاً وطاعة أكثر من اللازم"، فضـــحك الرجل وضحكنا وانطلق البريد.

وانتهت معركة الفلوجة الأولى، وبدأت معركة أخرى، معركة مع أهل الزيغ والضلال معركة مع خفافيش الظلام وكما يسميهم العراقيون "كلاب الطق" أي إذا انطلقت الرصاص طارت الأفئـــدة وطاروا معها خارج نطاق النـــزال.

بدأ الفتح وحطّ معه سيل جارف من أولئك المنتفعين وأشهروا سلاحهم في الطرقـــات وبـــدؤوا يحتفلون بالنصر وأنهم فرسان الميدان وأبطال النـــزال، يدفعهم في هذا الاتجـــاه، طغـــاة الحـــزب الاستسلامي ورؤوس أهل التصوف العفنة أعني بهم أهل الشرك والدروشة.

وكان مكسب هذه المعركة لا يقل أهمية عن رحى الحرب فثار أبو عزام مهدداً ومحذراً أن المدينـــة لن يحكمها إلا من جاد فيها بالنفس والنفيس ولن يكون لمن خرج منها يحمل الخزي والعار إبـــان القتال نصيب من الرأي والحكم، ولن نقبل أن تضيع وتسرق ثمرة الجهاد ونصب الجياد.

واتفق الجميع على ذلك؛ فتم تشكيل " مجلس شورى مجاهدي الفلوجة " من شباب التوحيد وممن شارك الجهاد من غيرهم، وكان حتماً أن يكون أبو عزام عضواً لهذا المجلس فتم تعيينه "عضو مجلس شورى المجاهدين"، والحق يقال: إنه كان صاحب الكلمة الفصل في هذا المجلس نظراً لأنـــه يقـــود كتلة التوحيد ومن انضم إليهم في المجلس فكانت لهم الغلبة والكلمة.

و مضت القافلة وبدأت مرحلة البناء، بناء المدينة نفسياً وعمرانياً وعسكرياً، وبدأ أبو عزام رحلـــة شاقة أخرى واصل فيها الليل بالنهار، كما بدأت في الأفق مراحل بناء أخرى حيث بدأت تتوافـــد إلى الفلوجة فرسان الجهاد وأمراء المجاميع يريدون اللحاق بركب التوحيد والجهاد.

وبدأ معهم أبو عزام بالإضافة إلى الشيخ أبي أنس هذه الرحلة فطافوا البلاد ليجمعوا النـــاس علـــى كلمة الجهاد، فأحكموا سامراء وأسّسوا الموصل وكتّلوا بعقوبة ورتّبوا الأنبار وغرسوا في كركوك وزرعوا الأمل في البصرة. رحلات مكوكية كانت لها كبير الأثر في بناء جيش الجهاد والتوحيد في هذه البلاد.

ومضت القافلة وبدأ العدو يستخدم تكتيكاً جديداً في الحرب بقصف الخطوط ثم البيوت ثم بيـــوت العائلات، واقترح الإخوة وعلى رأسهم أبي عزام الشيخ أن يأوي كل بيت من الأنصار رجلاً مـــن المهاجرين حتى نتلافى قصف تجمعات المهاجرين. ولكن هذا الاقتراح لم يجد له أثـــراً أو نصـــيبَ قبول، ولذلك انتشر الشباب في الطرقات يفترشون الأرض ويلتحفون حر السماء وكان منظـــرهم يقطع الأكباد، وكان أبو عزام الرحيم الرقيق يموت ألماً ويهرم خجلاً لما يرى من هذه المواقف.

ومضت القافلة وبدأت ريح مسمومة تهب من قبل الأمريكان تنذر بحرب طاحنة أخرى وبدا العدو لها هذه المرة أكثر استعداداً وأكثر حقداً وغيظاً.

و على العكس بدا الصديق لنا مخذلاً والمحب مبسطاً إلى حد كبير جداً، حتى قال أحد أمراء هـــذه الجيوش الإسلامية للشيخ "أبي الليث" عندما سمعوا خبر بدء معركة الفلوجة الثانية حيث رآه الشيخ أبو الليث غير آبه ولا مهتم يضحك وينشد، قال : "كأن الفلوجة لم تبدأ بها الإبادة أو ما تسمع"، فكان الرد كالصاعقة والحقد كالسم، قال: " اسمع يا أخي، الفلوجة انتصرت مشكلة، وانهزمـــت مشكلة "، فقال له أبو الليث: " انتصرت مشكلة، والله لا أجلس معك في بيت ولا يظلنا ســـقف واحد، ووجهي من وجهك حرام، يا أيها الشيخ السلفي "، وخرج من بيته الساعة الحادية عشـــر ليلاً.

و هذا حال أمراء الحرب المزعومين ولك أن تعرف أحوال عامة الأمة.

واتخذ أبناء " قاعدة الجهاد " قرارهم النهائي أن " نموت شرفاء خير مـــن أن نعـــيش أذلاء " ولا نكسر قلوب أمتنا في أبنائهم وحبذا الموت دفاعاً عن الدِّيْن وحمى العقيدة ولتكن الحـــرب فلـــها فرسانها نصراً أو شهادة.

و كالعادة تمّ تأمير الشيخ أبي عزام أميراً عاماً على الفلوجة وقائداً للمهاجرين والأنصار.

و بدأت الحرب، ونـــزل معها البلاء كالسيل الجارف ولاحت فتنٌ كقطع الليـــل المظلـــم وبـــدأ الحصار يشتد على فرسان الجهاد فقُطِعَت المياه ونَفِدَ الطعام وقُصِفَت المستشفيات، وبدأت الـــدماء تسير أنهاراً ودموعنا تسيل معها دماءً، وبدأ الفرسان يرحلون عنا الواحد تلو الآخر.

وبدأ منظر الجرحى يقطع الأكباد، فلا دواء ولا ماء ولا أطباء ولا شيء على الإطلاق.

أذكر أن أحد الأحباب أقدم شاكيَ السلاح على عدوه فرجع بطلقة في رأسه واحتضـــنته وبـــدأ ينـــزف بين يدي ساعتين يشتكي إلى الله ظلم أمة وخذلان الصديق، ودموعه تختلط بدمائه وآهاته تُبْكي الكفور، ولا يجدي بكائي له شيئاً حتى مات بين يدي شاهداً على ظلم الأمة وخذلان بـــني الجلدة، وإلى الله المشتكى.

فلم يهن أبي عزام و لم يلن بل بدأ صلباً جلداً على الرغم من رقّة قلبه المعروفة وحبّه المفرط لإخوانه وكان يقول " الموت في سبيل الله غاية ".

وكان من كراماته أنه لما قُسمت المدينة قسمين شمالي وجنوبي وانحزنا في الجزء الجنوبي بدأنا نعـــد العدة للكرّة مرة أخرى على القسم الشمالي وتمّ تعين الأخ القائد أبي ناصر الليبي لهذة المهمة فقـــال له أبو عزام: " إن شاء يا أبا ناصر تُصَلّي الظهر في جـــامع أبي عبيـــدة والعصـــر في الفـــاروق"، فضحكت في نفسي وقلت: "الرجل يحلم، هل تستطيع أن نوغل في العدو إلى هذا الحد"، ثم حـــتى إذا وصلنا إلى تلك الأماكن هل يتوفر الأمن للصلاة في هذه المساجد؟

وبدأ أبو ناصر كالأسد يهدّ الصفوف هدّاً مع إخوانه، وسبحان الله مع تكبيرة الظهر وصـــل إلى جامع أبي عبيدة ودخل مع بعض جنوده وصلّى فيه الظهر. ثم بدأ مستعيناً بالله الكرّة مرة أخـــرى يهدّ صفوف العدو ويُفرّق جمعهم ويشتت صفوفهم حتى وصل مع تكبيرة أذان العصر إلى جـــامع الفاروق. ودخل مع بعض جنوده وصلّى فيه العصر، ثم مال عليهم العدوّ بعنف وقوة فانحاز مـــع إخوانه إلى الموضع الذي خرج منه مستغرباً من فضل الله وبرّه بكلمة الشيخ أبي عزام.

واستمرت المعركة، وبدأ انحياز آخر لكن هذه المرة في القسم الجنوبي، فانحاز أبو عزام مـــع رفقـــة صالحة تعدادهم ثلاثة منهم عبد الرحمن البصراوي سائق الشيخ أبي مصعب وموضع سره.

ودخل العدوّ عليهم البيت وأمطروهم بوابل من الرصاص ودخل جندي وأطلق رصاصة واحدة في رأس كل واحد منهما ليتأكد من وفاته، وكان من بينهم الشيخ أبو عزام رحمه الله، وبعد ساعات بدا لأبي عزام أنه حيّ فظنّ أنّه في الجنة، ولكن لا حور ولا أنهار، وشعر برأسه كأنها جبل أو أثقل ورأى نفسه وإخوانه يسبحون في بحر من الدماء، وإذا بالجميع بين يديه صرعى وركامُ البيت فوق رؤوسهم. فأراد أن يقوم فهوى إلى الأرض سريعاً مغمياً عليه ثم أفاق مرة أخرى وأراد أن يـــدعو الله بدعوة صالحة وبعمل صالح ينقذه مما هو فيه من البلاء فقال: "اللهم إنك تعلم أن أبـــا ســـعيد (محمد حردان) كان من أحبّ الناس إليّ، فإن كنت تعلم أني تركته واتبعتُ أبا مصعب لك، ففرِّج عنّي ما أنا فيه"، ثم أُغمي عليه فما شعر إلا وشخص يحمله بين ضلوعه ويهرب به من بين طلقات العدوّ إلى أن وضعه عند إخوانه وبدؤوا يضمدونه حتى عافاه الله بعض الشيء. ثم أوى إلى جحـــر أليم وضيق مع بعض الإخوة، وبه من التعب والعنت ما الله به عليم. حتى أن الأمريكان شعروا أن في هذا البيت أحداً ففتشوه وفتشوه و لم يجدوا أحداً فأرادوا أن يريحوا أنفسهم فأضرموا فيه النار ثم انسحبوا وأطلقوا عليه عدة قذائف من دباباتهم، فاشتعلت النار حولهم وأصابت قذيفة جدار مخبئهم لكن الله سَلَّم؛ فما كان الذي أنقذه من طلقة في الرأس ليضيّعه اليوم، فهو أهل الكرم والجود يحفظ عباده من كل مكروه وسوء.

وانتهت الحرب، وخرج أبو عزام منها أصلب عوداً وأصفى سريرة وأكثر عزماً وأمضـــى ســـيفاً وأعقد عزماً على أن تكون كلمة الله هي العليا وكلمة الذين كفروا السفلى.

و فرح بمخرجه شيخ المجاهدين أبو مصعب فرحاً شديداً حتى أنه لما وصله خبر خروجـــه معـــافى سجد لله شكراً وأخذ يبكي حتى أشفق عليه من حوله.

واستمرت المسيرة، وأُسند إلى أبي عزام مهمة أكثر تعقيداً وصعوبة حيث أسندت إليه إمارة بغـــداد بعد معارك الفلوجة الثانية، وكانت الأمور في بغداد من الصـــعوبة بمكـــان حيـــث أن خطـــوط المجموعات كانت قد قُطعت إبان معارك الفلوجة الثانية، وسلاح الإخوة قَلّ وأحوال الشـــباب في بغداد في أسوأ حال.

فاستعان بالله وبدأ برحلة البناء فضمّ الشارد وقوّى الصف ووحّد الكلمة ورفع الجدران، وأنشأ الحصون، حصون الإيمان والمعارك، وغرس في الإخوة من جديد روح الثقة والأمل واستعان بالله على أمرهم، فوُفِّقَ أشد ما يكون وما هي إلا فترة وجيزة حتى بدأت معارك بغداد الواحدة تلو الأخرى؛ بدءاً بغزوة الثأر وانتهاءً باقتحام سجن أبي غريب، ثم كانت الخاتمة حيث عرف العدوّ مكان إقامته من أخٍ آخر اعتقاله، وأرادوا أن يذلوه وأراد الله أن يصطفيه، فاشتبك مع العدوّ ولحق بالأحبة محمد صلى الله عليه وسلم وصحبه، وكان من أمره قبل استشهاده بأيام أنه جاء إلى أميره أبي مصعب يطلب عملية استشهادية فرفض الشيخ، فقال والله يا شيخ لقد رأيت البارحة " أن منادٍ ينادي يا أبا عزام أقبِلْ فإن أبواب الجنة فُتِحَت ". فرحمك الله يا شيخنا رحمة واسعة وتغمدك وأسكنك فسيح جناته.

و يجدر بي أن أنوه إلى صفتين مهمتين في الرّجال قبل أن أختم المقال عن هذا الجبل الأشمّ.

الأولى: أنه كان من أعفّ الناس عن مال الله، ففي بغداد وعلى الرّغم أنه كان يتصرف في الآلاف بل الملايين من الدولارات، كان لا يستحل لنفسه أن يشتري أي شيء.

فلقد أراد أن يبرّ أمه يوما في صيف بغداد الحار، فأرسل إلى الشيخ يستأذنه في أن يشتري لأمه ثلاجة " براد ".

الثانية: أنه كان من أشفق الناس على إخوانه وأسرع الناس دمعة عند تلاوة القرآن وفي الصلاة.

أذكر أنه سمع مرة أني اعتقلت وتأكد له ذلك لأنه كان بيني وبينه ميعاد و لم أذهب لشيء تعلّق بالطريق عندي، وتواتر إليه الخبر فهدّهُ المرض وجلس في فراشه حتى عاده إخوانه وطفح الحبُّ على وجهه وشفتيه ولَمّا علم بعدم صدق الخبر حمد الله ورجعت إليه نفسه.

و أخيراً أسأل الله أن يخلفنا في أبي عزام خيراً وأن يحشرنا وإيّاه في مقعد صدقٍ عند مليك مقتدر. اللهم آمين.

وكتبه:

أبو اسماعيل المُهاجر